المحاضرة الأولى

الفصل الأول

(معنى الحضارة والمدنية والثقافة)

يطلق العرب على لفظة الحضـــارة (التمدن) او (التمدين) اي المقيمون بالمدن ، وهذه اللفظة تطابق الكلمة اللاتينية Civis (التمدن) ومنها اشـــتقت الكلمات الاوربية الحديثة الدالة على الحضـــارة مثل الكلمة الفرنســـية civisation والكلمة الانكليزية Civilization والالمانية Zivisation يقابلها على الضـــد منها مصـــطلح (البداوة) الذي يعني التنقل وعدم الاستقرار .

معنى الحضارة :

لقد عرف العرب من قديم الزمان المقابلة بين معنى الحضـــارة ومعنى البداوة وهي مقابلة بين الاستقرار والتنقل فيوصف اهل الحضر (سكان المدن) بأنهم (اهل المدر) او (اهل الحجر) لانهم يسكنون بيوتاً مبنية من الطين والحجر ، خلافاً (لاهل الوبر) الذين يكنون بيوتاً من وبر الابل او شـــعر الماعز او صـــوف الغنم فهنا يأتي معنى الحضارة خلاف البداوة وهذا التعريف لايعطي أكثر من المعنى اللغوي العام . ويرى ابن خلدون في مقدمته أن الفرق بين التحضر والبدواة هو الاجتماع الانساني والعمران فيقول : (... والاجتماع الانســـاني هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التأنس والتوحش ، والعصـبيات ، واصـناف التغلبات للبشـــر بعضـــهم على بعض ، وما ينشـــأ عن ذلك من الملل والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر باعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث عن ذلك العمران بطبيعته من الاحواله) . فالاجتماع الانســـاني ضـــروري ، وهو معنى العمران والمدنية وهو الحضـارة ، وبذلك يربط بين الحضـارة والملك اي بمعنى (الاستقرار والسيادة) . وقرر ابن خلدون ان ثمة علاقة بين الملك والاستقرار وبين بناء المدن والامصار ، وان وجه الحضارة المشرق هو في بناء المدن .

تعريف الحضارة :

للحضـارة تعريفات متعددة ، كل يعرفها حسب وجهة نظره لمفهوم الحضـارة من نظرة الى الحياة المادية ، او التقدم العلمي ، او من الوجهة التاريخية . عرف بعضـهم الحضـــارة بمعناها العام فقال (انها تراث وانتاج مشـــترك بين الامم المختلفة ، اوان فضـــل كل امه انما يكون بقدر اســـهامها في هذا التراث) في حين عرفها المفكر الفرنسي جورج باستيد بأنها (التدخل الانساني الايجابي لمواجهة ضرورات الطبيعة

تجاوباً مع ارادة التحرر في الانسان ، وتحقيقاً لمزيد من اليسر في ارضاء حاجاته ورغباته ولانقاص العناء البشري) ويعرفها توينبي : بأنها حصيلة عمل الانسان في الحقل الاجتماعي والمناقبي وهي حركة صاعدة وليس وقائع ثابتة وجامدة ، أنها رحلة حياتية مستمرة) . ويعرفها (البرت اشفينسر) (بأنها الحضارة) هي التقدم الروحي والمادي للافراد والجماهير على السواء) . ويقول ايضاً ان الطابع الجوهري للحضارة لا يتحدد بانجازاتها المادية بل باحتفاظ الافراد بالمثل العليا لكمال الانسان وتحسين الاحوال الاجتماعية والسياسية للشعوب . وللانسانية في مجموعها ، وان يكون التفكير خاضعاً لهذه المثل بطريقة حية ثابتة . ويتحدث ابو الاعلى المودودي عن الحضارة فيقول : (انما هي نظام متكامل يشمل كل ما للانسان من افكار وآراء واعمال واخلاق في حياتهم الفردية أو العائلية أو الاجتماعية او الاقتصادية او السياسية) . فالسلوك الانساني هو الذي ينتج الحضارة لانه استجابة لتحد من ظروف الطبيعة يكون هو المثير والدافع والحافز للانسان كي يتغلب على ما يواجهه لاشباع حاجاته ورغباته ، ومنافسة الانسان الآخر له على ذلك ، ثم ما يكون من قصور بيئته المادية عن تلبية هذه الحاجات والرغبات ، وهكذا تكون الحضارة ثمرة تحدي الانسان لبيئته ونوع استجابته لها ، ومن هنا يمكن القول ان الانسان قادر على صنع الحضارة عما انعم الله عليه بالعقل والارادة والعمل ، ولذا فلكل جماعة انسانية حضارتها المتميزة التي صنعتها ، وانتقلت من جيل الى آخر على اختلاف بيئاتهم الطبيعية . لذلك لا نعرف جماعة انسانية بلا حضارة ، فالبدو مثلا ليسو خلواً من الحضارة ، وهم في بلاد العرب قبل الاسلام كانت لهم نظمهم الدينية والسياسية والاجتماعية وعرفهم وتقاليدهم وقيمهم الخلقية ، فكان لهم شعر ومثل وقصص وحكم فيها تأمل وتخيل يدلان على قدرة عقلية ، فكانت لهم خبرات عن النجوم والرياح والمطر بنيت على الملاحظة والاستقراء . فالحضارة جامعة لمختلف جوانب النشاط المادي والفكري (الثقافي) وهي تلبي حاجات الانسان المختلفة ، وللحضارة خاصية (الاستمرار) والنماء والبقاء ، كما لها خاصية الانتشار في الجماعة الواحدة وبين الجماعات المتعددة ، وعلى هذا فأن لكل جماعة انسانية حضارة والفارق الوحيد بين الحضارات مستويات الافكار والقيم ذاتها .

تسميات الحضارة :

تقترن بكلمة الحضارة تسمية (العربية) او (الاسلامية) أو كليهما معاً (العربية والاسلامية) كوصف للحضارة ولاريب ان استخدام لفظة (الحضارة العربية) انما يشير الى دور العرب القيادي ونهوضهم برسالة الاسلام ، وغلبت على الحضارة صبغة لغة القرآن (العربية) وثقافتها ، وجمعت في نظامها مسلمين . واهل ذمة يتكلمون جميعاً العربية والتي كان نجاحها في الانتشار وقبول المسلمين . من غير

العرب لها واحلالها الصـــدارة في الســـنتهم حق كادت العربية تقضـــي على اللغات المحلية الخاصـــة وكادت تصـــبح اللغة العالمية الوحيدة ، مما كان أثرها الحضـــاري والثقافي لا يقل عن نجاح الفتوح الاسلامية في جوانبها العسكرية والسياسية . ونكون بهذا قد اطلقنا المصطلح على الصورة العربية وعلى المعطيات الحضارية للعرب . كما ان وصـــف الحضـــارة بأنها (اســـلامية) يجعلها اقل دقة في الدلالة فهي تعطي مدلول التنظيم الاســـلامي القائم على العقيدة الالهية ، وتهمل الدور القيادي للعرب ، وما حملوه مع الدين الاســـلامي من تراث حضـــاري امتزج معه ليمثل مزج العقيدة الاسلامية بالتراث الحضاري العربي الذي ينسجم مع الاسلام و ابراز دور المسلمين من غير العرب مع العرب المســـلمين في بناء الحضـــارة ، وعدم اغفال اثر رســـالة الاســـلام في قيام الحضـــارة وصـــياغة طابع موحد لها في المجتمعات التي دانت بالاسلام . إن دراسة الحضارة كعقيدة ومنهج للحياة يصح تسميتها بـــ (الحضارة الإسلامية) الا اننا اذا تناولنا دراسة الحضارة في اطار تاريخي فلا ينبغي فيه ربط الحياة التي عاشـــها المســـلمون في بيئاتهم المختلفة كنهج مثالي للحياة وكلا الامرين يجعلان دراســـة الحضـــارة عملاً مبتوراً غير متكامل . فاعتبار صـــفة (العربية الاسلامية) مع الحضارة تعطى دلالة أوسع واكثر شمولية لان هذه التسمية تعطي معنى مشاركة العرب المسلمين والمسلمين من غير العرب ، والمتكلمين العربية من غير العرب في بناء صرح الحضارة العربية الاسلامية . وعلى هذا يمكننا القول ان اســـس الحضـــارة ترجع الى التراث العربي وما جاء به الدين الاســـلامي من عقيدة ونظم وتشريع ، وما استقوه من حضارات الامم التي وجدت في البلاد التي حررها العرب .

بين الحضارة والثقافة :

تكلمنا على معنى الحضارة وسنتناول هنا معنى الثقافة وبينها وبين الحضارة فقد جاءت كلمة الثقافة في اللغة العربية من الفعل (ثقف) وورد معنى (الثقافة) في القرآن الكريم بمعنى (الظفر بالشـــيء بعد البحث والتنقيب عنه) فقال تعالى (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) . وجاءت معاني الثقافة في المعاجم العربية تنطوي على تحديدات متقاربة وهي (سرعة الفهم ، والمهارة ، والدقة ، والبحث والتقصـي والمعرفة والفكر ...) . والثقافة بمفهومها الحديث تعني (ذلك الكل المركب الذي يحتوي على المعرفة والمعتقدات والفن والاخلاق والقانون والعرف والعادات وكل القدرات التي حصـــل عليها الانسان كعضو في المجتمع) وعرفها آخر بانها تعني (التنظيم لانماط السلوك والافكار والمشـاعر) . وعلى هذا الاسـاس نسـتطيع أن نميز بين ما هو عام وماهو خاص في الثقافة (فعموميات الثقافة) ترتبط بالعادات والتقاليد والافكار واللغة وانماط السلوك المشـتركة وهي عامة بين ابناء الثقافة الواحدة . اما (خصـوصـيات الثقافة)

فهي التي تتعلق بالجماعات المهنية والطبقات الاجتماعية والجنس والثقافة الفلسفية والتقنية الصناعية ..) .

وقد ميز بعض المفكرين ثلاثة محتويات رئيسة للثقافة :

١- (المحتوى التقني) المرتبط بالوسائل التي يستغل بها الانسان العالم المادي .

٢- (المحتوى الاجتماعي) الخاص بالنظام الاجتماعي والانشطة والمؤسسات الاجتماعية .

٣- (المحتوى الفكري) المتعلق بالتقدم المعرفي للثقافة بالمعتقدات والقيم .

اما ما يميز بين الحضارة والثقافة هي ان الحضارة لها قابلية الانتقال والانتشار بين الامم في حين أن الثقافة تختص بكل امة .

بين الحضارة والمدنية :

لقد اثار المعنى الشامل للحضارة محاولات للتمييز بين الحضارة وبين المدنية ، فالمدنية يتمثل فيها الجانب المادي (التقني) . اما الحضارة فتشمل الجوانب المادية والفكرية وبذلك فهي اعم واشمل من المدنية ويعلق البرت اشفيتسر على محاولة التمييز بين الحضارة والمدنية بقوله : اننا لا نستطيع التفرقة بين الحضارة culter وبين المدنية civilisition فكل محاولات التحضر كانت حتى الآن عمليات فيها تعمل قوى التقدم في كل مرفق من مرافق الحياة فتوالت الانجازات الكبرى في الفن والمعمار والادارة والاقتصاد والصناعة والتجارة والتعمير تدفعها قوة دافعة روحية انتجت تصوراً اعلى للكون ، وكل جزء اصاب الحضارة ظهر في النواحي المادية كما ظهر في النواحي الاخلاقية والروحية . إن للمدنية معايير دقيقة تقتبس كل ما ينتمي اليها من الاشياء باعتبارها وسيلة لغايات يمكن قياس درجة كفايتها والتيقن من نجاحها في اداء مهمتها كالصناعات والمخترعات وغيرها ، من وسائل المدنية الحديثة ، فهي تقتصر على الاشكال المادية للاشياء المحسوسة التي تتمثل في شؤون الحياة اما المنجزات الحضارية مثل النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية فهي لا تخضع المقاييس المدنية لان الامر لا يتعلق بقياس كفاءة هذه الانظمة لتحقيق غايتها بل الى تقدير قيمة هذه النظم للفرد والحياة . ويمكن القول ان المدنية في تقدم مستمر ولكن الحضارة ليست كذلك ، ولا يصادف المدنية معوقات كالتي يصادف انتشار الحضارة وانتقالها ، والمدنية (التقنية) تستعار بغير ادنى تغيير وليس كذلك امر الحضارة او تستطيع الحضارة ان تسخر الجوانب التقنية (المدنية) كادوات لها .

اصول الحضارة العربية الإسلامية :

تعد اللغة من الضوابط الاصيلة للحضارة او بقدر ما تكون اللغة أصيلة بقدر ما تتميز بها الحضارة من اصالة ، واللغة وان كانت اصلاً اداة للتخاطب والتعارف في الامة الا انها ايضـــاً الاداة المهمة في الثقافة الفكرية ، فعند انتقالها تنقل معها التأثر بثقافة تلك الامة وعاداتها ومعطياتها ومفاهيمها عن الحياة ، وتقود اللغة الى ضـــابط حضاري اصيل عندما تكون للحضارة معطيات فكرية متكاملة . كما هو شأن القرآن الكريم في الحضـــارة العربية الاســلامية وقد اختار الله سـبحانه للمفاهيم التي ارادها لبني البشـــر لغة العرب فقال تعالى (انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) فاصـــبحت العربية لغة الاســلام ولغة المســلمين الاولى ، وقد مثلها المســلمون من غير العرب دون اي تعقيد أو شـعور النقص ، واحلوها الصـدارة في السـنتهم حتى كادت العربية تقضـــي على اللغات المحلية الخاصـــة كالايرانية والتركية ، ونجد كثيراً من الكلمات العربيـة تحتل حيزاً مهماً من تلك اللغـات او غدا الحرف العربي الحرف الايراني والتركي وبقيت العربية لغة الحضـارة ، وسـتبقى اصـيلة في حفظها وفي ابنائها الى الاستمرار في العطاء الحضـاري لانها كما يسـميها ابن خلدون : (لسـاناً حضـرياً) . فكانت ولا زالت الوعاء الاصيل الواسع التي احتوت الحضارة العربية الاسلامية في جميع مفاهيمها وجوانبها من تشـريع عقدي ونظم سـياسـية واجتماعية واقتصـادية وثقافية تميزت بها عن ســائر حضـــارات الدنيا باصـــالة ســماتها ومفاهمها ، وان اصولها ترجع الى :

١- مـا كـان عنـد العرب في الجزيرة العربيـة من تراث هو من نتـاج تجـاربهم في حياتهم في الجزيرة ، كالشـورى في امورهم السـياسـية والاجتماعية والعسـكرية او عقد الاحلاف ، والتحكيم في القضـايا السياسية والعامة في حسم المشـاكل المختلفة ، وتنظيماتهم الاقتصـــادية ، وما كان يملكونه من نتاج ادبي رائع يتمثل في الشـــعر والخطب والحكم والامثال والقصـص واللغة العربية التي تتجلى بلاغتها وثروتها في القرآن الكريم .

٢- ما حمله عرب اليمن من ثقافة عربية هي من نتاج اجدادهم في التجارة والزراعة والصـــناعة ، وهندســـة الري ، وفن العمارة ، الزخرفة والكتابة والتي تمثلت في حضارة المعينيين والسبئيين والحميريين .

٣- ما انتجته المجتمعات العربية الحضـرية في بلاد المناذرة والغســاســنة والانباط وتدمر والحضر.

٤- ما كان عند عرب العراق والشام ومصر من حضارة عريقة تعود الى أيام